السيرة الناقصة (*)

كما أملاها خليل حاوي على د. ساسين عسّاف حين كان طالبا لديه

د. ساسين عسّاف

ولدتُ في الشويْر، لبنان، أوّل كانون الثاني ١٩٢٥. نلتُ شهادة الماجستير عام ١٩٥٥ وكان موضوع رسالتي: «العقل والإيمان بين الغزالي وابن رشد».

نلتُ الدكتوراه من جامعة كيمبردج عام ١٩٥٩ وكان موضوع أطروحتي: **جبران خليل جبران، إطاره الحضاري، شخصيته وآثاره**. والكتاب صدر باللغة الإنكليزيّة.

مجموعاتي الشعريّة: **نهر الرماد** (١٩٥٧)، **الناي والريح** (١٩٦١)، **بيادر الجوع** (١٩٦٤).[1]

نشرتُ في المجلّات دراسات عدّة في الفلسفة والشعر والأدب.

أجدادي لم يخضعوا لإقطاع. كانوا يحترفون صناعة البناء. وكان اللبناني والسوري يفخران بأنّ بيتهما من صنع شويري.

أبكرتُ في النضج. في الثانية عشرة كنت الأوّل في صفّي. المدرسة يسوعيّة، كان يشرف عليها اليسوعيّون. المعلّم كان يوسف صوايا. في أحد الامتحانات نلت الجائزة الأولى في الدروس ثمّ تبع ذلك امتحان في التعليم المسيحي. فسألني الأبّ اليسوعي «من هم الهراطقة»؟. والجواب المقرّر في التعليم المسيحي: «إنّ الهراطقة هم الذين خرجوا على طاعة الكنيسة الكاثوليكيّة». فكان جوابي: «لا أعرف». أمّا الأب اليسوعي فقد أدرك أنّي أعرف وأرفض أن أعترف بأنّ طائفتي هي طائفة الهراطقة. أمرني بالركوع فرفضت. وحاول أن يطردني من المدرسة، فاحتجّ الأستاذ يوسف صوايا وقال له: «إنّ الشويريّين أجمعهم سوف يثورون على المدرسة إذا ما طردني». ثمّ طلب منّي الوقوف قصاصاً. وتوسّط بيني وبين الأب اليسوعي الأستاذُ صوايا فوقفت. وما كان من الأب إلاّ أن أبدل الجوائز وأعطاني جائزة التعليم، وهي صورة مريم العذراء، وأعطى الفائز الأوّل بالتعليم المسيحي كتاباً كبيراً. وهذا ما جعلني أشعر حتّى الآن بكيد الرهبان. عندي طرب خاص لما يذكر عنهم في القاموس. أبعدُ الناس عن المسيح: السلك الكهنوتي.

إنّ تخطّي ما هو مطلوب من الطالب في عمر معيّن خلق في نفسي شعوراً بالثقة الذاتيّة والامتياز والتفرّد.

الشوير هي أقلّ القرى اللبنانيّة تعصّباً طائفيّاً. من هنا بدا عمل الأب اليسوعي مستهجناً. فمن تراثها أنّها قدّمت للفكر الحرّ عدداً من المفكّرين الثائرين الذين دفعتهم ظروف الاحتلال العثماني إلى الهجرة. من هؤلاء: الدكتور خليل سعادة، وداود مجاعص، . . . نعت «شويري» نعتٌ يُعْتَدّ به، نعتٌ ينطوي على أهمّ ما تشتمل عليه الحياة الجبليّة من صبر على المصاعب وثورة في وجه الظلم يداخلها اعتداد الشويري عادة بتفوُّق أجداده وآبائه في مجالات

> أبعدُ الناس عن المسيح: السلك الكهنوتي.

الصناعات المختلفة. هناك ما يشبه الصراع المحلّي على تصدّر المنطقة، وقد فاز الشويريّون بالصدارة بعد مصارعات عديدة مع القرويّين في القرى التي تحيط بالشوير.

والدي كان بنّاءً، يعمل كعادة البنّائين الشويريّين، يرتحل في مستهلّ الربيع إلى سوريا للعمل هناك وبخاصّة في منطقتين: منطقة جبل الدروز ومنطقة الجولان. وربّما أثّرت المناقبيةُ الدرزيةُ تأثيراً قوياً، ولكنه خفّي، على سلوك الشويريّين، وهو سلوك تغلب عليه صفة الفروسيّة في مفهومها العربي. مرض والدي ولي من العمر اثنتا

> كنت أيّام العطلة ألزم البيت لأنّني كنت أفتقر لثوب جديد يصلح أن يلبس في هذه المناسبات.

عشرة سنة، وكان مرضاً عصبيّاً موجعاً. وضاقت بنا سبلُ العيش، فتحتّم عليّ - وأنا كبير إخوتي وأخواتي - أن أترك المدرسة وأبدأ العمل كما يبدأ الكثير من الشويريّين - «فاعِل» - . ومن أوْجعِ الذكريات أنه كان عليّ أن أحمل الحجارة في بناء «البلوكاج» بين الطريق والرصيف. الموجع في الأمر توقُّف زملائي الطلاّب عن التحدُّث إليّ، مع العلم أنّي كنت أعيش من قبل حياة يمكن أن تعدّ مترفة بالنسبة لدخل والدي. وممّا أذكر أنّني كنت أيام العطلة، وهي أيّام الآحاد والأعياد، ألزم البيت لأنّني كنت أفتقر لثوب جديد يصلح أن يلبس في هذه المناسبات. وكنت أحسّ خلال تلك

(*) نُشرت المقالة في مجلّة **الفكر العربي المعاصر**، العدد ٢٦، حزيران/تموز ١٩٨٣.

(١) حين أُجريت المقابلة، لم يكن **الرعد الجريح** ولا مجموعة حاوي الكاملة قد صدرا بعد.

الأيام بكآبة وسأم، وكنت أتساءل: «لماذا تزوّج أبي وأنجبني»؟. وخلال الطفولة، إلى التاريخ المذكور، كنت أحاول قبل النوم أن أفكّر في طبيعة الله دون أن أصلّي، وكان يبدو لي كما يبدو للصغار عادة رجلاً مسنّاً طويل اللحية معقود ما بين الحاجبين مخيفاً. وربّما داخَلَ هذا التأمّل الطفولي نوعٌ من التأمّل المبكر في طبيعة الخلود والأبديّة، وهو أمر كان يصعب عليّ تصوّره، ولهذا كنت أحسّ بما يشبه الرعدة كلّما خالجني الشعور بزمنٍ لا ينتهي.

في الرابعة عشرة عملت «عاملاً» متدرّباً في «التطيين والتبليط». وكان العمل يقتضي من العامل أن يبدأ عمله قبيل طلوع الفجر وألاّ ينتهي إلاّ بانتهاء النهار وابتداء الليل. وما زلت أذكر الحذاء الذي كان ينضح بماء الكلس فيؤثر في جلد رجليّ تأثيراً قد يبلغ حدّ التفسّخ.

في السابعة عشرة أصبحت معلّماً. والدي مرض سنتين فقط. ارتحلتُ كما يرتحل اللبنانيّون إلى الجولان في أوائل الربيع وكنت أعمل ملتزماً صغيراً، وكان العمل ناجحاً نجاحاً معتدلاً. وفي نهاية الموسم، في أواخر الخريف، زارني والدي في عملي وارتاح إلى ما أنجزته في مجال هذه الصناعة. ولكنّي ثرت عليها وألقيت أدواتها على الأرض، وقلت له لن أعمل بعد اليوم عاملاً يدويّاً مهما يكن المردود المادّي. خلال هذه الفترة كنت دائماً أقرأ إلى ساعة متأخّرة من الليل باللغة الفرنسيّة والإنكليزيّة والعربيّة، ونظمت قصائد كثيرة في اللغة العاميّة اللبنانيّة ظهرت في المجلاّت، كما نظمت القليل من الشعر في اللغة الفصحى. وهذا العمل مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعرف الشويري. فالشيخ ضاهر خير الله عطايا الشويري كان بنّاءً ودرس فقه اللغة على نفسه، وأتقنه، ثمّ امتنع عن البناء ووضع أبحاثاً أصيلة في هذا المجال اعترف بأصالتها في الوقت الحاضر الشيخُ عبد الله العلايلي الذي قرّر أنه لم يُفد في مجال فقه اللغة إلاّ من نتاج الشيخ المذكور بين علماء اللغة في القرن التاسع عشر.

في الوقت نفسه كان لي شيء من الهوس العاطفي، فتعلّق قلبي بفتاة هناك في القنيطرة. كنت أجمع المال القليل وأوفّره لأزور القنيطرة خلال فصل الشتاء لألتقي بها في مناسبات عامّة. لها أثر في قصائدي الأولى بالعاميّة.

في الخامسة عشرة انجرفت في الحزب السوري القومي. حاولتُ أن أهاجر إلى الأردن فمنعني القنصل الإنكليزي بحجّة انتمائي إلى هذا الحزب الممنوع في الأردن آنذاك.

ومن وجوه تمرّدي كان التمرّد على قرار القنصل فذهبت إلى الجولان ومنها عبرت الحدود مشياً على الأقدام. وكان دليلي واحداً من البدو سبق لي أن عرفته. كانت الرحلة من قرية تدعى فيق عبر وادي الرتّاد، عبر نهر الأردن، إلى الكفارات. نمت ليلة في خيم البدو عند أقرباء الدليل. ثمّ انتقلت إلى «إربد» حيث يسكن ابن عمّ والدي، ومنها إلى عمّان، ثمّ إلى الكرك، ومنها إلى الغور الصافي على ضفاف البحر الميّت. ذهبت إلى هناك لأنّ عمّي كان يعمل مهندساً في شركة «البوتاسيوم»، ومكثت سنة وجمعت حوالي خمسين ليرة فلسطينيّة. ثمّ عدت إلى لبنان وعملت في مجالات مختلفة وتابعت الدروس في الوقت نفسه، إلى أن توفّر لديّ بعضُ المال، فانقطعت عن العمل ودخلت مدرسة الشويفات العليا وتخرّجت منها، وانتقلت إلى الجامعة الأميركيّة.

خليل حاوي يلقي قصيدة «أهرمان» في الجامعة الأميركية

كنت أدرس وأقوم ببعض الأعمال المرتبطة بالحياة الجامعيّة، وكنت من السبعة الأُول في السنة الأولى التي بلغ عدد الطلاّب فيها ٤٧٥ طالباً، ونلت بعض المكافأة، كما نلت جائزة الشعر في قصيدة «أهرمان». ومن أهمّ المعالم أنّي كنت أرفض أن أكون الجامعي الوحيد بين إخوتي، ولهذا كان عليّ أن أساعد والدي في تعليم إخوتي. ثمّ نلت شهادة الـ «B.A» بتفوّق، وكنت أتردّد بين التخصّص في الفلسفة أو الأدب. ولكن رئيس دائرة الأدب العربي طلب منّي أن أدرّس الفكر العربي للصفّ الأوّل، والأدب للصفّ الثاني، وبراتب قليل جدّاً ـ «مساعد مدرّس» ـ ولهذا كان عليّ أن أعطي بعض الدروس الخاصّة الإضافيّة لأنفق على نفسي وعلى إخوتي. ثمّ نلت شهادة الماجستير وكانت الرسالة في العقل والإيمان. ولكن ميلي الجارف إلى الشعر قرّر اتجاهي، فغلّبتُ الأدبَ على الفلسفة في دراستي، وكنت أحاول أن أفيد إلى أقصى حدّ ممّا تقدّمه الجامعة في مجالات الأدب الإنكليزي والعربي والفكر الغربي والعربي.

اطّلاعي وثيق جدّاً في الحضارة العالميّة من ما قبل أفلاطون إلى آخر

التطوّرات في الفكر الحديث، وهذا أمر مخالف لما تواضع عليه الناس في مجال الثقافة الأدبيّة. كان المفهوم السائد أنّ الفكر الفلسفي يفسد الأدب وبخاصّة الشعر. وربّما كان لثقافتي الفلسفيّة بعض الأثر في تمايز شعري عن شعر الآخرين من روّاد الشعر الحديث، وأعتقد أنّ الفكر الفلسفي عمّق الرؤيا الشعريّة عندي دون أن يوشحها أي أثر من آثار الفكر الذي يقرّر تقريراً أو يرد على سبيل الحكمة المأثورة.

نلت منحة من الجامعة وذهبت إلى كيمبردج. كنت أوفّر قسماً من المنحة لأرسله للعائلة. كنتُ على علاقة بفتاة هنا ثمّ ذهبت إلى كيمبردج. وكنّا على علاقة حميمة طوال السنين الثلاث التي قضيتها هناك، هذا مع بعض الخبرات العاطفيّة هنا وهناك.

اخترت موضوع «جبران» لأنه كان أيسر الموضوعات التي يمكن أن أعالجها بحيث يبقى لديَّ وقت وفير لمتابعة بعض الدروس في الفنون المختلفة والآداب الأوروبيّة والأدب المقارن والفكر. كانت هذه المرحلة من أخصب مراحل حياتي فقد أنهيت الأطروحة المطلوبة وأنهيت مجموعة **نهر الرماد** وقسماً كبيراً من **الناي والريح**. عدت إلى لبنان وإلى الجامعة الأميركيّة أستاذاً مساعداً في دائرة الأدب العربي. وكانت شهرتي قد ترسّخت كأحد روّاد الشعر الحديث، وقد أدهشتني الشعبيّة التي توافرت لي خلال غيابي.

الفكر الفلسفي عمّق الرؤيا الشعريّة عندي دون أن يوشّحها أيّ أثر من آثار الفكر الذي يقرّر تقريراً أو يرد على سبيل الحكمة المأثورة.

قبيل السفر حدث صراعٌ بيني وبين رئيس الحزب القومي جورج عبد المسيح على قضايا فلسفيّة كان الرئيس يعالجها معالجة فجّة تدلّ على جهله بالمبادئ الفلسفيّة في الحركة وفي التراث الإنساني. ومن الذين شاركوني في الاعتراض على الرئيس آنذاك غسان تويني وإنعام رعد، وانتهى الصراع إلى إعلان انفصالي عن الحزب إعلاناً ظلّ محصوراً في دوائر الحزب ولم أخرج به إلى صراع مكشوف على صفحات الجرائد والمجلّات. وكنت قبل ذلك أُعدّ الثقة في قضايا الحزب القومي التي تصطبغ بصبغة فلسفيّة كما كنت قد تعوّدت أن أعيش محاطاً بالرفاق الذين كانوا يحترمون معرفتي في العقيدة وإخلاصي في العمل لها. ولهذا كان الانفصال موجعاً مفجعاً إلى حدّ ما، وربّما بدا أثر ذلك في **نهر الرماد** حيث يغلب التعبير عن التوحّد والوحشة ومجابهة الوجود فرداً وحيداً يفتقد ما عرفه من قبل من مساندة الرفاق له.

ثمّ انتقلت من الشعور بالعدميّة إلى اكتشاف قيم الحضارة العربيّة من جديد، وأدركت أنّ الحزب القومي كان على خطأ أساسي عندما دعا إلى وحدة تعمّ الهلال الخصيب باسم سوريا والحضارة السوريّة. وأصبحت أعتقد أنّ الدعوة إلى مثل هذه الوحدة نفسها يجب أن تكون باسم العروبة لأنها السمة الجوهريّة التي يتمّ بها تراث هذه المنطقة؛ هذا مع الاعتقاد بإمكان قيام وحدة عربية أشمل. والوحدة كانت مرتبطة بنزعة تقدميّة انبعاثيّة عبّرتْ عن ذاتها في شعري. وكان الصراع على أشدّه في جبهتين متعارضتين: الأولى أقودها أنا والدكتور سهيل إدريس في مجلّة «الآداب»، والثانية يقودها يوسف الخال وأدونيس في مجلّة «شعر». والغالب على النزعة الثانية تغريب لبنان وفصله عن تراثه العربي. غير أنّ الصراع قرّر تقريراً مبرماً رسوخَ النزعة العربيّة في العالم العربي بوجه عام ورسوخها رسوخاً نسبيّاً في نفوس بعض المثقّفين اللبنانيّين المسيحيّين ونفوس المثقّفين المسلمين إجمالاً وإجماعاً.

أدركت أنّ الحزب القومي كان على خطأ أساسي عندما دعا إلى وحدة تعمّ الهلال الخصيب باسم سوريا والحضارة السوريّة، وأصبحت أعتقد أنّ الدعوة إلى مثل هذه الوحدة نفسها يجب أن تكون باسم العروبة لأنّها السمة الجوهريّة التي يتمّ بها تراث هذه المنطقة، هذا مع الاعتقاد بإمكان قيام وحدة عربيّة أشمل.

مسألة الزواج

الثرثرات النسائيّة في المجتمع البيروتي أفسدت الصلة بيني وبين ديزي الأمير التي أهديتها كتاب **جبران**، إلى اليد التي أمسكت بيدي في ليالي الشكّ والخلق وهي التي رافقتني إلى كيمبردج.

التراث والانبعاث

ظلّت الطباع الجبليّة التي نشأتُ عليها تؤكّد ذاتها بعنف يبلغ حدّ المغالاة في مجال الخلق الشعري والالتزام بالعقيدة العربيّة التزاماً يطرح قضيّة الانبعاث العربي على مستوى مطلق. ومّما يعرف عنّي التأكيد على الاستقلال بالرأي واعتبار نفسي أصيلاً في التراث العربي وفي الدعوة إلى بعثه من جديد واعتبار المعايير التي أستند إليها هي أصلح المعايير. وهذا الأمر دفعني أحياناً إلى الثورة على بعض المسؤولين العرب ثورة مباشرة بلغت حدّ التعنيف والتوبيخ. ومّما أقوله: لا فضل لمسلم على مسيحي إلّا في أصالة عروبته. وكنت أرفض الشعور الذي تنطوي عليه الدعوة العربيّة كأنها دعوة متأصّلة تأصّلاً تلقائيّاً في نفوس المسلمين وهي وافدة على نفوس المسيحيين من خارج. وكان يبلغ احتقاري أشدّه أحياناً لبعض المثقّفين المسلمين

الـذين يظنُّـون أنّ إسـلاميتهم تجعلهم أصيلين في عـروبتهم. وكنت أرفض دائـماً أن يُظنّ أنّ اعتنـاقي للعقيدة العـربيّة هـو ربحٌ لأهلهـا الأصليّين، وربّما دفعني ذلك إلى التصريح مراراً بأنّ الذين يعتنقـون العقيـدة العـربيّـة هم عـلى جهـل في حقيقتهـا مسـاوٍ لجهـل الـذين يعارضونها.

كنت أرفض الشعـور الذي تنـطوي عليـه الـدعـوة العربيّة كأنّها دعوة متأصّلة تأصُّـلاً تلقائيّـاً في نفوس المسلمـين وهي وافـدة عـلى نفـوس المسيحيّـين من خارج.

تجربة كيمبردج العاطفيّة

لم ألتق المرأة التي يمكن أن تكون رفيقة تملأ جوانب نفسي وتشبع رغباتي المختلفة المتنوّعة من فكريّة وشعريّة وحسّيّة. المرأة تابعة لي تابع المسحور دون أن أستجيب لها استجابة تامّة. العلاقة كانت علاقة رفاق صراع أكثر ممّا هي علاقة رجل بامرأة تبلغ حدّ الاندماج التام. شعورٌ بالإخفاق في هذا المجال. لم أعطِ العناية الجدّية الوافية لهذا الموضوع. شعور مضمر في نفسي أنّ الشعر يقتضي من الشاعر وقف الحياة عليه وحده وبخاصّة عندما يكون شعراً ملتزماً بثورة انبعاث حضاري مطلقة. علاقات ثقافيّة وحسّيّة وشعوريّة مع المرأة الغربيّة. الشعر يستولي على نفسي بكليتها، وإنّ أقرب النساء إليّ ـ كما قالت إحداهنّ ـ تأتي في الدرجة العاشرة بعد الشعر. كان هناك نوعٌ من التعويض في تعدّد الصداقات.

الوالد

كان عنده نوعٌ من الرقيّ الفطري الذي كان يظهر في سلوكه عـامّة وخاصّة بالنسبة لتنشئتنا. فهو كـان يكره أن يكـون التأديب بـالضرب والتوبيخ العنيف، وكان يعاملنا معاملة فيها الكثير من اللطف ـ لطف الأب القوي الصارم.

الوالدة

القدرة على العمل مستمدّة من التراث الشويري. إنّها تأبى حتّى الآن أن يكون لها خادمة لتظلّ مستقلّة بعمل البيت؛ وهذا مع تقدّمها بالعمر.

القراءات الأوّليّة

جبران، المختارات العربيّة الشائعة، الأدب الحديث وبخاصة الأدب المهجري.

وقد درست على سعيد عقل الشعـر عامـين بدون انتسـاب، وظهر الفارق بيني وبينه من خلال ملاحظاته على ما كنت أقدّمه لـه من نثر أو شعر. سعيد ينزع منزع الفخامة في اللفظ والعودة إلى المعاجم وأنا على نقيض ذلك.

الأدب الرومنطيقي المترجم وغير المترجم، شلي، كيتس، وردزورث، كولردج، لامارتين، ألفرد دي فيني، هيغو، فلوبير في النثر.

كانت قراءات ذاتيّة أحاول أن أنزع بها منزعاً منهجيّاً وأن أطّلع على ما يقوم في ذوقي قياماً مبرماً. كنت دائماً أحاول أن لا أغلّب الذوق الفردي على الثقافة العامّة.

أقـرب النسـاء إليّ تـأتي في الـدرجـة العـاشرة بعـد الشعر.

وقرأتُ الأدب الأوروبي وبصورة خاصّة الأدب الألماني في ترجمات إنكليزيّة وفرنسيّة.

كما قرأتُ الشعر الغربي الحديث بأكمله أوروبيّاً وأميركيّاً واشتراكيّاً.

بعد النضج أصبحت أملك معايير عامّة.

يصدر قريباً

معبد الفجر

للروائي الياباني الشهير

يوكيو ميشيما

ترجمة: كامل يوسف حسين

دار الآداب